الأوبئة بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط:
"قراءة في الأسباب والمظاهر"

الأستاذ عبد الواحد الناصيري
باحث في التاريخ الوسيط
حاصل على شهادة الماستر في التاريخ الوسيط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس
مكناس، المغرب

الملخص:

نحاول من خلال هذه الورقة البحثية المتواضعة تسليط الضوء على الأوبئة والطواعين التي عصفت بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، بغية فهم وإدراك الأسباب التي أدت إلى وقوعها، وأيضا الاطلاع على أبرز المظاهر التي ترتبت عنها، خاصة إذا علمنا أن المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط شهد على امتداد تاريخه فترات حرجة، إذ لم نقل مأسوية في كثير من الأحيان، كانت من بين الأسباب المسؤولة عن هذه الأوضاع المتأزمة، كارثة الأوبئة والأمراض وما كان ينتج عنها من أثار مدمرة على ساكنة المغرب الوسيط، هذه الأوبئة التي تعددت أسباب حدوثها، فتارة كان العامل الطبيعي والمتمثل في تلوث الهواء وفساد المناخ وخروجه عن اعتداله الطبيعي هو المسؤول عن وقوعها، وتارة أخرى كان العامل البشري والذي تجلى في لجوء الناس إلى تناول أطعمة غير مألوفة لديهم خلال أوقات المجاعات والقحوط، سببا في حدوثها، وفي المقابل ظلت أسباب بعض الأوبئة غامضة وغير واضحة، أي من غير سبب معلوم، وعلى كل حال سواء كانت العوامل الطبيعية أو البشرية أو غيرها من العوامل هي التي كانت تقف وراء حدوثها، فإن المظاهر التي كانت تترتب عنها من قبيل ارتفاع الوفيات سواء في صفوف العامة أو الخاصة، خراب المدن وتضرر القطاعات الاقتصادية، الهجرات السكانية من المناطق المتضررة إلى المناطق الغير المتضررة أو الأقل ضررا، واللجوء إلى المتصوفة والاقتناع الجازم بصدق كرامتهم وقدرتهم على شفاء الأمراض، علاوة على الاحتكار وغلاء الأسعار، وقطع الطرق والاعتداء على ممتلكات الغير، هذه كلها مظاهر تؤكد لنا بما لا يدع مجالا للشك الخطورة التي كانت تمثلها هذه الأوبئة سواء على السلطة أو المجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط.

الكلمات المفتاحية: الأوبئة، القحط، الوفيات، العدوى، فساد الهواء، السرقة، غلاء الأسعار، الأولياء.

مقدمة:

يندرج موضوع الأوبئة والطواعين بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط ضمن "التأريخ للأزمة" فهو يدخل في إطار تاريخ المجتمعات والذهنيات، الذي حسب تعبير المؤرخ إبراهيم القادري بوتشيش لم يحظى بما يليق به من مكانة في الدراسات التاريخية الخاصة بالمغرب والأندلس، رغم الخانة التي أصبح يحتلها في خريطة المناهج المعاصرة، ولا غرو فإن الموضوع عد من اختصاص السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين أكثر من المؤرخين، بينما هو في الواقع عطاء صادق وانعكاس جيد لأرضية تاريخية تجعل منه حقلا خصيبا للبحث التاريخي، وموضوعا في أمس الحاجة إلى الاستقصاء والبحث من وجهة نظر المؤرخ.[1]

في هذا الصدد عرف الإنسان الصراع مع الأمراض والأوبئة منذ وجد على سطح الأرض، فاكتشف الأمراض وأعراضها، وسبب انتشارها في الأقطار والأمصار، وحاول وصف العلاج الشافي لها وطرق الوقاية منها، للحد من تنقل العدوى بين المصابين، فكانت فكرة صحته وسلامة جسده من أعراض المرض، هي الشغل الشاغل لعقله منذ أقدم العصور[2].

لذلك تعتبر الأوبئة والطواعين من أخطر الأزمات التي هددت حياة ومعيشة سكان المغرب الإسلامي بصفة عامة، لتفرض حالة من اللااستقرار، وتدني المستوى الصحي في المدن والبوادي، حيث أنها انتشرت بكثرة واجتاحت أماكن وقوعها وقضت على العديد من السكان بمختلف الطبقات، لذلك كان للأوبئة والطواعين أثار سلبية على المجتمع الإسلامي في العصر الوسيط.[3]

فكانت هذه الأوبئة تخلف أثارا حادة في البنية الديمغرافية والاقتصادية للمجتمع الذي كان يواجهها بكثير من الاستسلام والعجز، ويرى فيها مصائب تتنزل بها الأقدار[4]، وتأسيسا على ما سبق فإن هذه الأوبئة والأمراض المستعصية كانت من بين الجوائح التي هددت الإنسان المغربي الوسيط، كما كان لها تأثير واضح على البنية الديمغرافية، وبالتالي على القاعدة الإنتاجية والمستوى المعيشي للسكان، ومما زاد من نتائجها السلبية عدم تطور الطب بالشكل الذي يتيح محاربة هذه الأوبئة، أو على الأقل التقليل من حدتها[5].

وعليه يمكن القول أنه إذا كانت المجاعات الناتجة عن القحوط وندرة المواد الغذائية، تمس بدرجة أولى الفقراء لا الأغنياء، لأن الموت كان يكثر بسبب الجوع في صفوف الضعفاء، فإن الأوبئة لم تكن لتميز بين الأشخاص الأغنياء والفقراء[6]، حيث ظلت تهددهم بالفناء، لذلك لم يستطع الإخباريون إسقاط هذه الكارثة من ذاكرة التاريخ، ذلك أن النتائج التي تمخضت عنها ساهمت في تكوين جزء كبير من مصير الأحداث التي اعتنوا برصدها.

- فما هي أسباب حدوث الأوبئة بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط؟
- وإلى أي حد ساهمت المجاعات وفساد الهواء في حدوثها؟
- وما هي أبرز المظاهر التي ترتبت عنها بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط؟
- وكيف أترث هذه الأوبئة على المجتمع والسلطة بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط؟

و من اجل محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات والعمل على قدر المستطاع من أجل إماطة اللثام عن موضوع الأوبئة بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط من حيث الأسباب والمظاهر، اعتمدنا على عدة مناهج والتي ساعدتنا على الوصول إلى الحقيقة التاريخية على الرغم من نسبيتها، ومن بين هذه المناهج نذكر: المنهج التاريخي (الاستردادي) والمنهج الوصفي التحليلي، والمنهج

المقارن، وهو ما ساعدنا على القيام بتمحيص واستقراء وتحليل مختلف النصوص التاريخية التي اشتغلنا عليها، ومقارنتها مع بعضها البعض، بغية استنتاج مسببات حدوث الأوبئة بالمغرب الوسيط والوقوف أيضا عل أبرز مظاهرها.

الفصل الأول: الأوبئة بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط – قراءة في الأسباب –

قبل الغوص في الأسباب مباشرة، لابد من إلقاء نظرة متمعنة، والقيام بعملية جرد لأهم الأوبئة التي اجتاحت المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، بغية تعميق النظر في أسبابها، وإبراز تجلياتها، حيث ستكون عملية الجرد مصحوبة بالأسباب.

ولعل أول إشارة تاريخية في هذا الصدد تلك التي أشار إليها أحد الإخباريين بقوله: «**في سنة ستين ومئتين كان في بلاد الأندلس والمغرب وباء عظيم مع غلاء السعر وعدم الأقوات.**»[7]، وهو ما يؤكده أيضا صاحب البيان المغرب بقوله: «**وفي سنة ستين ومئتين كانت المجاعة العامة بالمشرق والمغرب والوباء والطاعون.**»[8].

انطلاقا مما جاء على لسان هذين الإخباريين نستنتج على أن هذا الوباء كان ملازما لمجاعة 260هـ/874م، الناتجة عن الجفاف، إضافة إلى طابع الشمولية الذي ميزه والمتمثل في اكتساحه للمغرب والأندلس والمشرق، لكن على الرغم من عدم ذكر أسباب حدوث هذا الوباء، فإن ملازمته للمجاعة تجعل من المحتمل جدا أنه قد كان ناتجا عن أكل حبوب فاسدة ومتعفنة من الشعير، أو أكل أشياء غير مألوفة مما يعرض عند ارتفاع الأسعار، أو بتغير الهواء الذي يتغير بتغير أبخرة أجساد الموتى العفنة.[9]

حسبنا دليلا في ذلك ما ذهب إليه ابن هيدور التادلي الفاسي، عندما اعتبر أن الوباء له علاقة وثيقة بالمجاعة التي تسبقه، فعند «**فساد الأغذية المستعملة في زمن المجاعات وغلاء الأسعار، ينظر الإنسان إلى تناول غذاء غير مألوف قد فسد وتعفن لطول زمانه، فيفسد المزاج من هذه الأغذية وتحدث الأمراض القاتلة.**»[10].

وبعد خمسة وعشرون سنة أي سنة 285هـ/899م، يذكر ابن أبي زرع الفاسي أن المغرب الأقصى وبلاد الأندلس كانوا على موعد مع المجاعة والوباء الملازم لها، فيقول: «**أن مجاعة شديدة عمت بلاد الأندلس وبلاد العدوة، حتى أكل الناس بعضهم بعضا، ثم أعقب ذلك وباء ومرض وموت كثير، هلك فيه من الناس ما لا يحص فكان يدفن في القبر الواحد أعداد من الناس لكثرة الموتى وقلة من يقوم بهم وكانوا يدفنون من غير غسل ولا صلاة.**»[11]

يستشف من هذا الكلام، أن حدوث هذا الوباء الذي أعقب مجاعة 285هـ/899م، من المحتمل أن يكون قد حدث بفعل انعدام الأقوات واتجاه الحشود الجائعة إلى استهلاك أطعمة غير مألوفة، كأكل اللحم الآدمي وغيره، على حد تعبير صاحب الأنيس المطرب، فيصبح النظام الغذائي للسكان أثناء المجاعات يتغير من سيئ إلى أسوء كلما طال أمدها، فقد أجبروا على تناول القوارض والجرذان والأفاعي، وحتى جثث الموتى وبقايا الحيوانات النافقة، فكان لهذا أثر على صحتهم نظرا لما تحمله هذه المأكولات من أمراض وجراثيم، الشيء الذي كان يؤدي في بعض الأحيان إلى أوبئة فتاكة بعد مجاعات هدامة[12].

من هنا يمكن القول أنه لا يخلوا عقد من العقود سلم خلاله المغرب من مظهر من مظاهر الشدة، ولعل هذا ينسجم مع ما ذكره الوزان «**بأن الوباء يظهر في بلاد البربر على رأس كل عشر سنوات، أو خمس عشرة، أو خمس وعشرين سنة.**»[13]، وتماشيا مع ما جاء على لسان الحسن الوزان حول مسألة تعاقب الوباء على المغرب الأقصى، فإنه في «**سنة سبع وثلاثمائة كان بالمغرب والأندلس وأفريقية رخاء مفرط ووباء كثير وطاعون، وفيها كانت الريح الشديدة السوداء التي قلعت الأشجار وهدمت الديار بمدينة فاس، فتاب الناس ولزموا المساجد، وارتدعوا عن كثير من الفواحش والفساد**».[14]

ولعل إشارة ابن أبي زرع الفاسي إلى هذا الوباء الشامل للمغرب الأقصى والأندلس وأفريقية سنة 307هـ/920م على حد تعبيره، تستدعي منا الوقوف نظرا لما تقدمه لنا من قراءة مغايرة لأسباب حدوث الوباء.

لأنه إذا كان ابن هيدور التادلي يؤكد على العلاقة الحتمية بين الوباء وبين الغلاء والجوع[15]، فإن توظيف ابن أبي زرع الفاسي لعبارة " رخاء مفرط ووباء كثير وطاعون"، يجعل ما توصل إليه ابن هيدور حول العلاقة التلازمية بين المجاعة والوباء، موضع تسائل، لأن كلمة رخاء تدل على العيش في رخاء وهناء، وسعة العيش ورفاهية ويسر، وعليه يمكن القول أن ظهور الوباء بعد المجاعة لا يعتبر ظاهرة ثابتة ونتيجة حتمية، غير أن كتب التاريخ سجلت بعض الحالات التي ظهر فيها الوباء بعد المجاعة.[16]

لذلك فإن هذا الالتقاء بين الظاهرتين لا يعني علاقة إلزامية بينهما، إذ أحصينا كثيرا من المجاعات لم تكن مصحوبة بالوباء، كذلك تذكر مصادرنا بعض الأوبئة التي حدثت في سنوات رخاء، فالمجاعة وإن لم تكن من العوامل المحددة لظهور الوباء، فهي ولا شك من العوامل التي تسهل انتشاره، وتهيئ له الأرضية التي تجعله شديد الوقع قتالا[17].

بناء عليه يمكن الجزم بأن أسباب حدوث هذا الوباء بعيدة كل البعد عن المجاعة وانعدام الأقوات، وقريبة جدا من التغيرات والتقلبات المناخية، خاصة وأن ابن أبي زرع الفاسي، يؤكد أنها سنة تميزت بعواصف عظيمة ورياح شديدة سوداء أدت إلى خلق نوع من الهلع والخوف في صفوف السكان، لذلك كثيرا ما كانت تنتج عن التقلبات المناخية التي كانت تتردد على المغرب انتشار الأمراض والأوبئة.[18]

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة كان الوباء العظيم بالمغرب والأندلس، هلك فيه أكثر الخلق[19]، وعلى الرغم من أننا لم نهتدي بعد إلى سبب حدوث هذا الوباء، إلا أن المتأمل في عبارة "كان الوباء العظيم" يجدها توحي وتدل على قوة انتشاره وفتكه بالناس، وحتى إذا ما حاولنا تتبع جغرافية الوباء بالمغرب الأقصى فإن المصادر والإشارات لا تمكننا من ذلك، حيث اقتصرت على ذكر لفظ عام هو المغرب، أو ذكر المدن التي تعرضت للوباء مثل مدينة فاس وطنجة وسبتة ومراكش[20].

من خلال هذه الملاحظة السريعة يتضح لنا أن هذه المدن المذكورة، كانت تعد من أهم حواضر بلاد المغرب الأقصى، في هذا السياق لابد من التساؤل حول اقتصار المصادر التاريخية على الإشارة إلى الحواضر الموبوءة دون ذكر البوادي أو الأرياف، بمعنى أخر لماذا ركزت المصادر التاريخية على ذكر الوباء الذي أصاب المدن ولم تذكر البوادي؟ السؤال نجد تفسيره عند ابن خلدون فيول: **«والبلد إذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة، وتحدث الريح المتخللة للهواء الراكد، وإذا خف الساكن لم يجد الهواء معينا على حركته وتموجه.»** [21]

وبالعودة إلى كرونولوجية الأوبئة في المغرب الأقصى، نجد أنه في سنة تسع وسبعين وثلاثمائة كانت الريح الشرقية بالمغرب، دامت إلى ستة أشهر فأعقبها الوباء العظيم والأمراض الكثيرة[22]، والملاحظ أن هذا الوباء قد تزامن مع مجاعة امتدت من سنة 379هـ/989م إلى سنة 381هـ/991م، حيث كانت المجاعة الشديدة بالمغرب وإفريقية والأندلس، دامت ثلاث سنين أي إلى 381هـ/991م، وهي السنة التي ضرب فيها القحط «**حتى جفت المياه جفوفا كثيرا.**»[23]

وعليه يبدو أن هذا الوباء قد حدث بفعل الرياح الشرقية، التي عصفت بالمغرب الأقصى والتي كانت سببا كذلك في ظهور المجاعة التي دامت زهاء ثلاث سنوات، حسب ابن أبي زرع الفاسي، خصوصا إذا علمنا أن هذه الرياح هي رياح حارة وجافة تهب من ناحية الصحراء وتشبه بذلك رياح الخماسين، فيحدث الوباء بسبب القحط وارتفاع درجة الحرارة فأصحاب المزاج الحار يشملهم في ذلك الضعف والذبول ويغلب عليهم اليبس غاية الغلبة، وفي الغالب يكون هذا المرض شاملا وعاما يؤدي إلى الموت[24].

وخلال العقد الأول من القرن الخامس الهجري كانت كل من بلاد العدوة والأندلس وأفريقية، على موعد من جديد مع المجاعة والوباء الملازم لها، وهي الكارثة التي أشار إليها أحد المؤرخين بقوله: «**وفي سنة سبع وأربعمائة كان بالمغرب والأندلس وأفريقية قحط شديد ومسغبة عامة ووباء كثير.**»[25]

الملاحظ على ما أورده صاحب الأنيس المطرب، هو غياب توضيح أسباب حدوث هذا الوباء، شأنه في ذلك شأن باقي المصادر الإخبارية ولا سيما ذات المنهج الحولي، ككتاب المنتظم لابن الجوزي، والكامل في التاريخ لابن الأثير في المشرق، والبيان المغرب لابن عذاري المراكشي، والأنيس المطرب لابن أبي زرع الفاسي، حيث أن ذكر أصحاب هذه المؤلفات للمجاعات والأوبئة كانت إشارات عابرة في غالب الأحيان، فلم تتم الإحاطة مثلا بأسبابها، وكيفية حدوثها ونتائجها، لكنها رغم ذلك فقد أرخت لهذه الأزمات على الأقل زمنيا.[26]

وعلى العموم، تبقى إشارة ابن أبي زرع الفاسي إلى هذا الوباء في كونه كان ملازما لمجاعة 407هـ/1017م، تفتح باب التكهنات حول احتمالية وقوعه بفعل لجوء الحشود الجائعة من الناس، إلى أكل أطعمة غير مألوفة، أو بفعل تحلل جثث الموتى، حيث أن ضراوة الجوع والصراع من أجل البقاء، دفع بالناس إلى ابتكار أساليب جديدة في التغذية فنجدهم في المناطق التي يكثر فيها الجراد يستعملونه طبخا وقليا، على الرغم من خطورته على الصحة(...) بل إن بعض الروايات ذهبت إلى حد القول بإقدام الإنسان على أكل لحم أخيه الميت[27].

وخلال زمن حكم الخلفاء الموحدين، بالضبط خلال سنة إحدى وسبعين وخمسمائة «**نزل الوباء والطاعون بمدينة مراكش، ولم يعهد مثله فيما تقدم من الأزمنة قبله.**»[28]، وهو ما يؤكده صاحب الأنيس المطرب بقوله: «**وفي سنة إحدى وسبعين وخمسمائة كان الطاعون الشديد بمراكش وأحوازها، وكان الناس يموتون فيه من غير مرض، فكان الرجل لا يخرج من منزله حتى يكتب اسمه ونسبه وموضعه في برأة، ويجعلها في جيبه، فإن مات حمل إلى موضعه وأهله.**»[29]

وحول جغرافية هذا الوباء، فإذا كان ابن عذاري المراكشي، وابن أبي زرع الفاسي، يؤكدان على الطابع الجهوي لهذا الوباء، فنحن نعتقد كما اعتقد غيرنا، أن هذا الوباء تعدى حدود مراكش، بل وحدود المغرب الأقصى برمته ليشمل بلدان الغرب الإسلامي بأكملها، ومما يشفع في تبني هذا الرأي سيولة الاتصالات بين هذه البلدان، سواء من الناحية التجارية أو من الناحية الثقافية[30].

وبالعودة إلى النبش في أسباب حدوث هذا الوباء، نجد أن ابن عذاري المراكشي، ربط بين نزول هذا الوباء والطاعون بتغير الهواء، مشيرا إلى عدم عهده به من قبل، لذلك فإن العلاقة بين حدوث الأزمات المناخية، وانتشار الأوبئة والأمراض هي علاقة تلازمية، حظيت باهتمام المجتمع آنذاك[31].

كما تزامن الوباء الذي اجتاح العدوتين عام 610هـ/1213م، مع بداية المواجهة الموحدية المرينية، في ظرف كانت فيه فلول الجيش الموحدي المنهزم في العقاب، مرتعا للوباء المذكور[32]، وبعدها بحوالي ست سنوات أخبرنا صاحب روض القرطاس باجتياح الوباء للمغرب فقال: «**ففي سنة عشر وستمائة كان الوباء العظيم بالمغرب والأندلس.**»[33]

وبالتالي فإن هذا الوباء كما أشرنا سابقا كان شاملا للعدوتين معا، لكن تبقى أسبابه غامضة، شأنه في ذلك شأن وباء 630هـ/1232م، الذي عصف بالمغرب وتزامن مع المجاعة، وهو الوباء الذي «**خلت فيه بلاد المغرب وكثر فيها الجوع والوباء، ووصل فيها وصل القمح ثلاثين دينارا.**»[34].

هكذا يتضح لنا أن أسباب وباء 610هـ/1213م، غير واضحة، حيث لم نعثر على أي إشارة في المصادر الإخبارية حول مسببات حدوثه، وخصوصا إذا علمنا أن سنة وقوعه وهي 610هـ/1213م، لم تكن سنة مجاعة، مما يبعد التهمة عن العامل البشري(لجوء الجياع إلى أكل أطعمة غير مألوفة) ويقربها من العامل الطبيعي، والمتمثل في التغيرات والتقلبات المناخية وفساد الهواء، وهو الطرح الذي يزكيه عبد الرحمان ابن خلدون، عندما تحدث عن أسباب ارتفاع عدد الأموات بصفة عامة، فقال: «**وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات، أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل، أو وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء.**»[35]

وتماشيا مع الطرح الخلدوني، القائل بحدوث الأوبئة بسبب فساد الهواء، فإن ابن خاتمة الأنصاري (ت. 770هـ/1369م)، الذي يطلق على الوباء لفظ "المرض الوافد" فهو بدوره اعتبر أن المرض وافد، لأنه لم يكن بسبب أكل فاسد أو مشروب سام، أو غيرها من الأسباب الجسدية، وإنما هو مرض ينتقل من الهواء، ويقدم على الناس من الخارج، فهو يفد عليهم[36]، وهو ما يعززه ابن خلدون بقوله «**والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب.**»[37]

في حين نجد بعض العلماء – على عكس ابن خلدون، وابن خاتمة الأنصاري– يدافعون عن عجز الطب وقصوره في فهم مسببات بعض الأمراض، منهم على سبيل المثال لا الحصر، الطبيب ابن زهر الذي على الرغم ما عرف به من تضلع في الطب والكشف عن ماهية الأمراض، فإنه مع ذلك اضطر حينما لم يتوصل إلى الكشف عن كنه بعض الأمراض والأوبئة، إلى الاستنجاد بالفكر الغيبي، من ذلك مثلا تصريحه «**بأنه قد يكون هناك وباء من غير سبب معلوم عندنا، قال من غضب الله عز وجل، وهذا إذا وقع ليس للطبيب فيه مجال.**»[38]

وبالعودة لوباء 630هـ/1232م، نستنتج أن أسباب حدوثه هي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمجاعة التي سبقته، مما يعزز فرضية حدوثه بسبب فساد التغذية الناتجة عن انعدام الأقوات وارتفاع الأسعار، وهي الفرضية التي يبني عليها ابن هيدور الفاسي، مقالته حول الأمراض الوبائية، فيربط بين فساد نظام التغذية وبين حلول الأوبئة.[39]

وفي خضم الصراع الموحدي المريني بالمغرب الأقصى، عصف الوباء بمدينة مراكش مرة أخرى سنة 634هـ/1236م، حيث يقول أحد المؤرخين في هذا الصدد: «**واجتمعت الوفود من أهل إشبيلية وسبتة وغمارة البحر من البلدين ووافقوا الصيف بمراكش، ومزاجها الإنحراف وهواؤها رديء، بكثرة الأمطار من الجدب الذي كان تقدم أعواما فكثرت الرطوبة وحدث الوباء (...) وقتل منهم عددا كثيرا.**»[40]

تماشيا مع كلام هذا المؤرخ، يمكن القول أنه عادة ما يكون القحط وقلة الأمطار مصاحبة للأوبئة والطواعين، بسبب نقص الغذاء واختلال المناخ، وهبوب الرياح الحارة الشديدة الحرارة و التي تسبب انتشار الأمراض وكثرة الموتى، كما هو الشأن بالنسبة لهذا الوباء الذي عصف بمراكش سنة 634هـ/1236م[41].

في هذا الصدد إذا كان ابن عذاري المراكشي قد أشار إلى وقوع هذا الوباء سنة 634هـ/1236م، فإن ابن أبي زرع الفاسي قد صنف حدوثه في سنة 635هـ/1237م، بقوله: «**وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة بايع أهل إشبيلية الرشيد وبايعه أهل سبتة، وفيها اشتد الغلاء والوباء بالعدوة، فأكل الناس بعضهم بعضا.**»[42]

وهنا يطرح السؤال: هل استمر هذا الوباء بالمغرب سنتين كاملتين؟ أم أن الذي وقع هو اختلاف بسيط بين الإخباريين حول زمن وقوعه؟ وعلى كل حال، سواء كانت مدة هذا الوباء سنة أو سنتين، فالراجح أن كثرة الأمطار التي أعقبت القحط والمجاعة التي اجتاحت مراكش، عام 632هـ/ 1234م، أسهمت في تفشي الوباء الذي استفحل في ظل واقع مثخن بالجدب ومخلفات المجاعة[43].

تأسيسا على ما سبق، يبدو أن حدوث هذا الوباء كان ناتجا عن الجفاف والقحط وتغير الهواء، في هذا الصدد يقول العلامة ابن القيم: « **إن فساد الهواء جزء من أجزاء السبب التام، والعلة الفاعلة للطاعون، فإن فساد جوهر الهواء الموجب لحدوث الوباء وفساده، يكون لاستحالة جوهره إلى الرداءة.**»[44]، جدير بالذكر أن هذه الأزمة الوبائية التي عصفت بالمغرب الأقصى عام 635هـ/1237م، تزامنت مع فترة اشتدت فيها أزمة الحكم، بعد وفاة الخليفة المأمون الموحدي، وهو ما عبر عنه أحد المؤرخين بقوله: «**وفيها خلت بلاد المغرب وكثر فيها الجوع والوباء، ووصل فيها قفيز القمح ثلاثين دينارا.**»[45].

وبعد القضاء على الوجود الموحدي بالمغرب الأقصى، وإحكام المرينيين سيطرتهم عليه، عرف المغرب سنة «**ثلاث وتسعين وستمائة مجاعة شديدة ووباء عظيم، بلغ القمح فيها عشرة دراهم للمد، والدقيق ستة أواقي بدرهم**»[46]، وهي الأزمة التي يشير إليها كذلك صاحب الاستقصا بقوله: «**وفيها كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم، عم ذلك بلاد المغرب وإفريقية ومصر، فكانت الموتى تحمل اثنين وثلاثة وأربعة على المغتسل**[47].

وما يستشف من كلام الإخباريين حول هذا الوباء، أنه من جهة كان ملازما للمجاعة، ومن جهة أخرى كان شاملا للمغرب وإفريقية ومصر، إضافة إلى حصده للعديد من الأرواح، في حين تبقى الإشارات حول أسبابه غامضة إذ لم نقل منعدمة، مما يعزز الفرضية القائلة «**أن حدوث المجاعة يعقبه حدوث وباء حيث إذا كان الغلاء واشتدت أسبابه لزم عنه الوباء، وهو علم صحيح وقانون مطرد، لا يحتاج فيه إلى تعديل ولا النظر في النجوم**»[48] حسب ابن هيدور التادلي الفاسي.

ثم انجلى وقع المجاعة وارتفع الوباء بعدما حصد أرواح المستضعفين من سواد المجتمع، إلى أن دخلت سنة أربع وتسعين وستمائة فيها صلح أمر الناس، ورخصت الأسعار[49]، وبحلول منتصف القرن الثامن الهجري (749-750هـ/1348-1349م) كان المغرب الأقصى على موعد مع الطاعون الأسود، شأنه في ذلك شأن باقي دول المعمور، في هذا الصدد يقول أبو جعفر ابن خاتمة الأنصاري (ت 770هـ): «**فذكر لي الثقة عن بعض التجار النصارى القادمين علينا بألميريا، أن ابتداؤه كان من بلاد الخطا وبلاد الخطا بلسان العجم هي بلاد الصين، ثم استمر ينتشر في أسيا الوسطى سنة 746هـ/1345م**»[50] وثمة روايات أخرى تؤكد أن انتشاره ابتدأ بأرض الحبشة، حتى انتهى إلى ديار مصر والشام، وهذا يوضح أن الوباء كان عاما وانتشر في مناطق مختلفة من العالم، بما فيها أوربا خلال منتصف القرن 8هـ/14م.[51]

لكن عند عودة ابن بطوطة من تونس إلى المغرب، قد مر بمجموعة من المناطق مثل تنس ومازونة، ومستغانم وتلمسان والعباد...، لم يذكر أنها تعرضت للوباء، لكنه علم بوفاة أمه عندما حل بمدينة تازة[52]، فقال في هذا السياق: «**ووصلت إلى مدينة تازة وبها تعرفت خبر موت والدتي بالوباء، رحمها الله تعالى**[53].»

وقد لاحظ الحسن الوزان هذا الاختلاف من حيث انتشار الوباء بين المناطق الشمالية الساحلية، والمناطق الجنوبية الصحراوية للمغرب العربي[54]، فذكر أن: «**الوباء يظهر في بلاد البربر على رأس كل عشر سنوات، أو خمس عشرة أو خمس وعشرين سنة، وعندما يأتي يذهب بالعدد العديد من الناس، لأنه لا يهتم به أحد ولا يستعمل أي دواء باستثناء التمسح بالتراب الأرميني حول دمل الطاعون، ولم يظهر الوباء بنوميديا منذ مائة سنة.**»[55]، أي طيلة القرن 9هـ/15م[56]

في هذا السياق وأثناء حديثه عن الطاعون الأعظم ذكر لسان الدين ابن الخطيب السلماني أن «**الأخبار تواترت بسلامة أماكن لا تطؤها الطرق ومنقطعة عن الناس**»[57]، هكذا يبدو أن صعوبة معرفة المناطق التي شملها الوباء بالمغرب، تبين طابع التعميم الذي كان السمة الغالبة للمصادر(...) وعلى العموم فإن ما يشير إلى عظمة هذا الوباء هو أنه كان عاما ونعت بنعوت تعبر عن قوته مثل "الأسود"، "الجارف"، "العام"، وهي تحمل دلالات معبرة[58].

وسعيا منه للوصول إلى تفسير يوضح أسباب حدوث هذا الوباء، حاول لسان الدين ابن الخطيب أن يتصدى لهذا الوباء عن طريق البحث عن حلول علمية له من خلال مقالته " مقنعة السائل عن المرض الهائل" وهي مقالة طبية ووثيقة تاريخية مهمة في الطاعون الجارف، حاول من خلالها مؤلفها أن يقدم لنا وصفا دقيقا عن المرض وأعراضه وأسبابه، فجاء عنه في ذلك: «**هو مرض حاد، حار السبب، سمي المادة، يتصل بالروح بدءا بواسطة الهواء، ويسري في العروق فيفسد الدم، ويحيل رطوبات، إلى السمية وتتبعه الحمى ونفث الدم، أو يظهر عنه خراج من جنس الطواعين، وإذا ذكرنا حقيقته فلنذكر سببه فنقول: « له سبب أقصى: وهو الأمور الفلكية من القرانات التي تؤثر في العالم، حسبما يزعمه أرباب صناعة النجوم، ويأخذه الطبيب مسلما عنهم، وسبب أدنى: وهو فساد الهواء الخاص بمحل ظهوره ابتداء أو انتقالا**[59]».

كما أشار إلى ضرورة التحفظ منه لقدرته على الانتشار عبر العدوى، فتوقف عند هذه الأخيرة ومفهومها فوضح، بأن الإصابة به تكون في الأكثر عن طريق العدوى، فهو يرى أنها تحصل نتيجة الاختلاط والاتصال بالملامسة، وتحصل العدوى في نوعي الوباء: تنتقل العدوى في الطاعون الرئوي عبر أبخرة المرضى المتعفنة الخارجة مع أنفاسهم، أما في الطاعون الخرجي، فتنتقل العدوى عن طريق ملابسهم وفراشهم التي تقلبوا فيها زمن مرضهم.[60]

جدير بالذكر، أنه لما أجمع الأطباء على أن الطاعون وباء متنقل زاحف مرتحل، من بلد إلى أخر، فإن عبد الله لسان الدين ابن الخطيب السلماني، أورد في مقالته هذه، ثلاثة أمثلة ممن هم بعيدون عن العدوى: «**كالزاهد ابن أبي مدين بمدينة سلا، وكان من القائلين بالعدوى، وقد تزود لمدة وبنى باب منزله على أهله وهم كثيرون، وفنيت المدينة، ولم يرزأ نسمة واحدة بطول تلك المدة، وتواترت الأخبار بسلامة أماكن لا تطأها الطرق ومنقطعة عن الناس، ولا أعجب لهذا العهد من سجن الأسرى من المسلمين بدار صنعة إشبيلية، وهم ألوف لم يصبهم الطاعون، وقد كان يستأصل المدينة، وأخيرا العرب من الرحالين بإفريقية وغيرها لعدم انحصار الهواء وقلة تمكن الفساد منه**»[61].

فنستنتج مما أورده "ذي الوزارتين" أنه على الرغم من أن هذا الطاعون كان عاما، إلا أن هناك أشخاص لم يصيبوا بالعدوة مثل الإنسان الزاهد المنقطع عن الناس، والأشخاص الذين هم في وضعية سجن، والذين يعيشون في محميات طبيعية كالأعراب، وهذا ما دفع بعض المتزمتين إلى تكفيره واعتبروا الطاعون اختيارا إلاهيا ووخزا من الجان، واستندوا في قولهم هذا على أحاديث نبوية مثل: قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث صحيح، رواه أبو موسى الأشعري: «**فناء أمتي بالطعن والطاعون، قالوا: يا رسول الله، هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال: وخز أعدائكم من الجن وفي كل شهادة.**»[62].

لذلك كان البعض يرى في هذه الأوبئة والكوارث أنها عقابا من الله تعالى، على ما اقترفوه من سيئات وابتعاد عن صحيح الدين، فكان الرجوع إلى الله هو السبيل الوحيد لهم للتكفير عما اقترفوه بحق أنفسهم، ذلك أن الإنسان كلما استحكمت به الشدائد ووقعت به الكوارث عاد إلى ربه[63].

ولمواجهة الطاعون والوقاية منه ذهب ابن الخطيب إلى ضرورة الاحتراز والوقاية منه قبل وقوعه، وذلك باختيار الغذاء وإصلاح الهواء بالطيب والرياحين، واجتناب مظان الفساد من المريض أو الميت أو ثوبه أو أنيته أو ألته، أو سكنى محله، أو مجاورة البيت الذي فشا في أهله[64].

لذلك فإن ما ذهب إليه ابن الخطيب السلماني، هو يتماشى مع الحديث النبوي القائل: «**لا يورد ممرض على مصح**»[65] وحديث «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**»[66] على الرغم من أنها أحاديث اختلف فيها العلماء.[67]

لكن الملاحظ هو أن هذا الطاعون على الرغم من قوته وشموليته وفظاعته، فإنه كان كسابقيه ولاحقيه، لم يشكل دافعا لدى الإخباريين للحديث عن أثاره المدمرة ومنها نتائجه الاقتصادية، بما في ذلك ابن خلدون الذي شكل لديه هذا الطاعون حافزا نفسيا وباعثا على كتابة مؤلفه " تاريخ العبر" فقد مروا عليه بشكل سريع وغير دقيق[68].

نفس الأمر بالنسبة ابن الخطيب نجده أثناء زيارته لمدينة مراكش سنة 761هـ/1360م، يتحدث عن الضرر الذي لحق بها من جراء الطاعون الأسود، بشكل سريع ومختصر حيث وصف خرابها «**بالموحش الهائل.**»[69]

في هذا الصدد، عزا محمد القبلي صمت الإخباريين عن ذكر الطاعون الأسود إلى أنهم كانوا يعتبرونه رحمة بالنسبة للمسلمين، اعتمادا على ما ورد في الأحاديث النبوية، وأن ضحاياه هم في منزلة الشهداء، لذلك لم يكن ليحتل حيزا كبيرا في كتاباتهم، مع ما أشاعه من دمار.[70]

ولقد أردف الطاعون الأسود بمجموعة من الطواعين الأخرى زادت الوضع تأزما، وبعض المدن خرابا[71]، فيشير صاحب "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب" إلى الطاعون الذي عصف بالمغرب الأقصى عام 763هـ/1362م، والذي تزامن مع المجاعة فقال: «**وانتهى أمر هذه السنة الشهباء الإضحائية، إلى العشر الأخر من يناير العجمي الموافق لأخريات ربيع الأول من العام 763هـ، ممسكة شحا كلما موهت بالقزع تلاشى هلهله وتلاشى دخانه، وظهر الطاعون بأرض مكناسة وفاس وتازا وما إلى ذلك، لكونها لم تستأثر ببلالة رحمة مما قسم الله لغيرها.**»[72].

وبذلك يكون ابن الخطيب السلماني قد أدلنا على جغرافية انتشار طاعون 763هـ/1362م، في كونه لم يكن شاملا للمغرب الأقصى، وإنما اقتصر على بعض المدن مثل فاس ومكناس وتازة، كما نستنتج مما جاء على لسانه أن أسباب حدوث هذا الطاعون في هذه المدن بالذات، هو راجع إلى كونها لم تستأثر بحصتها من التساقطات المطرية، التي شهدتها غيرها من المدن والتي أنهت جفاف ومجاعة تلك السنة، فيقول في وصف هذه الرحمة: «**فاهتزت جبال الغيم تقلقلها هائلة الرعود، فسالت الأرض، وفهقت الأغوار، وتقلقل الزرع، وانبسطت النفوس، وهوى السعر بعد سموه في درج توقع الشدة**»[73].

ولم يتغير الحال كثيرا أثناء القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، حيث عصفت المجاعة والوباء الملازم لها بالمغرب الأقصى، سنة 845هـ/1440م، وداما 18 شهرا (...)، وهو الوباء الذي عرف بوباء عزونة[74]، وبناء عليه يعتبر وباء منتصف القرن 9هـ/15م، وباءا ملازما للمجاعة التي سبقته، فكان الجفاف وانحباس المطر هو المسؤول عن حدوثها، فكانت مدينة فاس من أكبر المدن تضررا من هذا الوباء، الذي تجدد بها سنة 873-874هـ/1468-1469م، حسب الأستاذ محمد ياسر الهلالي.[75]

وفي الوقت الذي كانت مدينة فاس تتأهب لاستقبال وفود الأندلسيين المهاجرين، ضرب بها الغلاء والجوع والوباء، أواخر سنة 898هـ/1492م، «**فكان من قدر الله تعالى أنهم لما وصلوا مدينة فاس (الأندلسيون) أصاب بها الناس شدة عظيمة من الجوع**

والغلاء والطاعون، حتى فر كثير منها بسبب ذلك، ورجع بعض أهل الأندلس إلى بلادهم، فأخبروا بتلك الشدة، فتقاعس من أراد الجواز.»[76]

فيبدوا مما جاء على لسان المقري التلمساني، أن وباء 898هـ/1492م، قد تزامن مع سقوط غرناطة ببلاد الأندلس، فحال دون عبور الكثير من مسلمي الأندلس الراغبين في الانتقال إلى العدوة المغربية، مما حتم عليهم البقاء والإقامة، فأضحت هذه الطائفة من المسلمين منذ انهيار سلطة المسلمين بجزيرة الأندلس، مغلوبة على أمرها بل وتعيش تحت سلطة أجنبية لم تكن مألوفة لها من قبل.[77]

وعلى العموم تبقى أسباب وباء 898هـ/1492م، مرتبطة بالمجاعة التي تزامنت معه، وبالتالي إذا كان المقري التلمساني قد حدد لنا جغرافية هذا الوباء (فاس) فإن ابن سلمون بدوره يشير إلى أن المدينة نفسها كان لها موعد من جديد في السنة الموالية مع الطاعون، عام 899هـ/1493م نتيجة هجرة العديد من اليهود إلى الأندلس.[78]

وبحسب ابن سلمون فإن أسباب هذا الوباء هي ناتجة عن العدوى، بفعل هجرة اليهود من بلاد الأندلس بعد سنة 1492م، فيروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه عندما سئل عن الطاعون قال: « **الطاعون غدة كغدة البعير المقيم بها كالشهيد، والفار منها كالفار من الزحف.**»[79] فهو بهذا التعريف النبوي الشريف جرثومة معدية سريعة الفتك بالإنسان، مثلها في ذلك مثل الجيوش الزاحفة.[80]

وعليه يمكن الخروج بخلاصة مفادها أن الأوبئة التي عرفها المغرب الأقصى خلال الفترة الوسيطية، تتعدد أسبابها وتتباين حدتها، فتارة يلعب العامل الطبيعي دورا هاما في حدوثها، وذلك إما عن طريق توالي السنوات العجاف والقحط الناتج عنها، أو بسبب التغيرات والتقلبات المناخية وفساد الهواء، وتارة يكون العامل البشري المتسبب في حدوثها، وذلك إما عن طريق العدوى، أو عن طريق اللجوء إلى أكل طعام غير مألوف، فرضته الأزمات الناتجة عن المجاعات التي فتكت بسكان المغرب الأقصى.

جدير بالذكر أنه في بعض الأحيان يكون الوباء من غير سبب معلوم حسب "الطبيب ابن زهر"، كما أشرنا سابقا، وختاما يوضح الجدول الآتي، الأوبئة التي عرفها المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، وذلك بتحديد زمن ومكان وقوعها، وأسباب حدوثها، مع ذكر المصدر أو المرجع الذي أشار إليها:

أهم الأوبئة في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط			
سنة الوباء	**مكان الوباء**	**سبب حدوثه**	**المصدر/ المرجع**
260هـ/874م	المغرب الأقصى.	من المحتمل أنه بسبب الجفاف وانحباس المطر، وانعدام الأقوات وغلاء الأسعار.	ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص. 97. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج1، ص.158.
285هـ/899م	المغرب الأقصى.	من المحتمل أنه بسبب الجفاف، واستهلاك أطعمة غير مألوفة.	ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص.97.

307هـ/920م	المغرب الأقصى.	من المحتمل أنه بسبب التغيرات والتقلبات المناخية.	ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص. 98.
344هـ/956م	المغرب الأقصى	أسباب غامضة وغير واضحة.	ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص.100.
379هـ/990م	المغرب الأقصى	من المحتمل أنه بسبب الجفاف وانحباس المطر لثلاث سنوات، وعامل الرياح الشرقية.	ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص. 102.
407هـ/1017م	المغرب الأقصى.	من المحتمل أنه حدث بفعل الجفاف، واستهلاك أطعمة غير مألوفة.	ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص. 118.
571هـ/1176م	المغرب الأقصى (مراكش وأحوازها)	تغير الهواء، وفساده.	ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج3، ص.237.
610هـ/1213م	المغرب الأقصى.	أسباب غامضة وغير واضحة.	ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص. 282.
630هـ/1232م	المغرب الأقصى.	من المحتمل أنه بسبب فساد التغذية الناتجة عن المجاعة وانعدام الأقوات.	ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص. 272.
634هـ/1236م	المغرب الأقصى (مراكش)	من المحتمل أنه ناتج عن تغير الهواء وفساده.	ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، ص. 276-277.
749-750هـ/1348-1349م	المغرب الأقصى	بسبب العدوى، وتغير الهواء.	ابن بطوطة، تحفة النظار، ص. 670.
763هـ/1362م	المغرب الأقصى (مكناس, فاس، تازة)	بسبب الجفاف واستمرار القحط.	لسان الدين ابن الخطيب السلماني، نفاضة الجراب، 61.
845هـ/1440م	المغرب الأقصى (فاس)	من المحتمل أنه وقع بسبب الجفاف وانحباس المطر.	ابن القاضي، لقط الفرائد، ص. 250.
898هـ/1492	المغرب الأقصى (فاس)	من المحتمل أن سببه الجفاف، وانعدام الأقوات.	محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض، ج1، ص.68.

جدير بالذكر أن توظيفنا لعبارة **"من المحتمل"** في الخانة الخاصة بأسباب حدوث الوباء، تعود إلى عدم توصلنا بإشارات واضحة ورسمية من لدن الإخباريين، حول أسباب حدوث بعض الأوبئة، فالمصادر الإخبارية غالبا ما تذكر الأوبئة كأحداث ضمن أخبار السنوات، وتذكرها في إشارات عابرة في غالب الأحيان، فلم يتم مثلا الإحاطة بأسبابها وكيفية حدوثها[81]، مما دفعنا إلى القيام بتمحيص وتحليل واستقراء النصوص التاريخية، ومقارنة المصادر المراجع فيما بينها، بغية استنتاج مسببات حدوث الأوبئة بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط.

الفصل الثاني: الأوبئة بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط – قراءة في المظاهر –

انطلاقا من المصادر والمراجع التاريخية التي اعتمدنا عليها، اتضح لنا أن أدق مظاهر الأوبئة وأثارها السلبية كانت تتضح بشكل كبير في الحواضر، حيث كان الوضع يتفاقم فيها أيام الأوبئة لأن هذه الأخيرة كانت تجد مرتعا خصبا لها في المدن عامة، وفي المدن الموفورة العمران خاصة، نتيجة فساد الهواء بسبب كثرة البنايات، والاختلاط الذي وفر المناخ لانتشارها[82].

«لأن الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير كمصر بالشرق و فاس بالمغرب والله يقدر ما يشاء.»[83]، انطلاقا من هذه القاعدة الخلدونية التي سبق وأشرنا إليها، نستنتج أن الوباء يظهر أكثر حيث يكون التجمع السكاني كثيفا وهو شرط متوفر في المدن، مما يؤدي إلى حدوث خسائر بشرية جسيمة، تشهد بها المصادر الإخبارية والتي تزكي هذا الأمر، فمثلا نجد ابن أبي زرع الفاسي، وهو يتحدث عن وباء 285هـ/899م، يقول: أنه «**كان هناك مرض وموت كثير هلك فيه من الناس ما لا يحصا، فكان يدفن في القبر الواحد أعداد من الناس لكثرة الموتى وقلة من يقوم بهم، وكانوا يدفنون من غير غسل ولا صلاة**»[84].

تأسيسا على ما سبق، يتضح أن هذه المظاهر المرافقة لزمن حدوث الوباء، هي من جهة تشير إلى حجم الدمار الذي أحدثه الوباء في صفوف العنصر البشري، لكنها من جهة أخرى، تطرح إشكالية صعوبة التوصل إلى إحصائيات مضبوطة سواء عن العدد الإجمالي للسكان قبل آفة الأوبئة، أو عن الخسائر البشرية كمخلفات لهذه الآفة، فكل ما تقدمه المصادر الإخبارية يدخل ضمن أدبيات الوصف مثل: «**كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم هلك فيها خلق كثير**»، «**لقد هلكت أمم لا تحصى**»، «**وباء مفرط هرب فيه أكثر أهل البلاد**»[85].

هذا وإن كانت هذه المصادر تعطي في بعض الأحيان إشارات تحمل بين طياتها بعض الإحصائيات، وإن كانت غير دقيقة بما يكفي، مثل ما أورده ابن أبي زرع الفاسي وهو يتحدث عن الوباء الذي ضرب مراكش سنة 571هـ/1175م، فيقول: « **وانتهى عدد الأموات بمراكش إلى ألف وسبعمائة رجل**»[86]، في هذا الصدد يعتبر الأستاذ الحسين بولقطيب أن هذا الرقم ينطوي على مبالغة واضحة، ذلك أن استمرار الطاعون لمدة سنة وبمثل هذه الخسائر البشرية اليومية، يفرض أن يتجاوز ساكنة مراكش 600 ألف نسمة، وهو أمر جد مستبعد بالنسبة لمدينة مغربية في العصر الوسيط، وحتى وإن كانت تمثل عاصمة دولة كبرى كدولة الموحدين.[87]

من هنا نستنتج أن الأستاذ الحسين بولقطيب ربما قد اعتبر أن الرقم الذي أورده صاحب الأنيس المطرب والمتمثل في 1700 من الموتى، إنما هو رقم خاص بالوفيات المسجلة في اليوم بمدينة مراكش، وهو أمر جد مستبعد من وجهة نظرنا، لأن ابن أبي زرع الفاسي لم يشير إلى كلمة "اليوم" في سياق حديثه عن الوفيات بمراكش، كما أن توظيفه لعبارة "وانتهى عدد الأموات" تجعل من الراجح أن

الرقم المعبر عنه هو خاص بسنة 571هـ/1175م بأكملها وليس بيوم من أيامها، وحسبنا دليلا في ذلك ما أورده ابن عذاري المراكشي متحدثا عن هذا الوباء فقال: «**انتهى عدد الأموات في كل يوم مائة إلى مائة وتسعين وأكثر من ذلك.**»[88]

كما يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أيضا أنه إذا كان الأستاذ الحسين بولقطيب اعتبر أن ساكنة مدينة مراكش لا يمكن أن تصل إلى 600 ألف نسمة ولو أنها عاصمة الموحدين، فلا يجب أن ننسى أن المدينة المراكشية في زمن يعقوب المنصور الموحدي، كانت حاضرة المغرب آنذاك[89]، وهو ما يؤكده أحد المؤرخين بقوله: «**وقد انجلى الناس إليها من كل مكان، وتفاخروا في سكناها بحسب القدرة منهم والإمكان، فصارت أوسع البلاد معاشا وأكثرها خلقا وأربحها تجارة، فضاقت بالناس فلم يجدوا موضعا للبناء ولا محلا للسكنى، وكان الأمير أبو يعقوب أمر القبائل هسكورة وصنهاجة أن يرتحلوا من بلادهم إلى سكناها بأهلهم وبنيهم، فامتثلوا لذلك ووصلوا ولم يجدوا حيث ينزلوا فشكوا ضيقتهم وحيرتهم**»[90]

وعلى العموم، يبقى ارتفاع الوفيات من أبرز المظاهر المرافقة لآفة الأوبئة، لذلك يمكن الجزم بأن مصيبة الموت لم تكن تقتصر على العامة من الناس فقط، وإنما كانت تشمل فئة عامة من العلماء والمفكرين، مما كان يؤدي إلى تراجع القطاع الفكري[91]، فعلى سبيل المثال «**توفي في وباء 571هـ/1175م، القاضي أبو يوسف حجاج بن يوسف بمراكش، وكان فريد زمانه في الفضل والزهد والعدل، وكان له باع واسع في الأدب، وكذلك الكاتب أبو الحكم ابن هردوش، وأخوه المشرف أبو الحسن، وكان من الطلبة الجلة، وكذلك توفي الكاتب أبو الحسن علي بن زيد الاشبيلي، ومشرف غرناطة أبو عمروا ابن أفلح، وجملة من أعيان الطلبة والموحدين رحمهم الله تعالى.**»[92]

وعلى الرغم من الإمكانيات الطبية والوقائية التي كانت متوفرة للخليفة وأفراد عائلته فإن عددا من هؤلاء لم يفلتوا من الإصابة بهذا الوباء (571هـ/1175م) حيث «**مات فيه من أولاد الخليفة عبد المؤمن السيد أبو عمران، ثم أخوه السيد أبو سعيد، ثم أخوهما السيد أبو زكريا صاحب بجاية، والشيخ أبو حفص عمر بن يحي الهنتاني، جد الملوك الحفصيين.**»[93]

كما كان للطاعون الأسود أو الطاعون الجارف كما يسميه بعض المؤرخين، عدة مظاهر تدل على شدة قوته وفتكه بالناس وتغيير أحوالهم، وهذه المظاهر يصفها لنا أحد المؤرخين فيقول: « **نزل شرقا وغربا في منتصف المائة الثامنة من الطاعون الجارف، الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها وقل من حدها وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن.**»[94]

لذلك فإن الطاعون الأسود الذي عصف بالمغرب الأقصى خلال منتصف القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، قد كانت له عدة مظاهر سلبية أرخت بظلالها على كافة الأصعدة سواء على مستوى الاقتصاد، أو العمران، أو السياسة، أو المجتمع وخاصة على مستوى العنصر البشري، شأنه في ذلك شأن باقي الأوبئة التي عرفها المغرب الوسيط، حيث نجد على سبيل المثال الحاضرة المرينية فاس، بدورها قد تضررت بشكل كبير من جراء الأوبئة التي عصفت بالبلاد، فعلى سبيل المثال خلال وباء سنة 845-846هـ/1441-1442م، والذي دام ثمانية عشر شهرا وعرف بوباء عزونة، توفي في فاس ما بين 400 إلى 500 شخص في بضعة أيام[95].

فكان عدد الهلكى مرتفعا بإجماع المصادر، شمل نصف ثلث أو نصف سكان المناطق المصابة وربما تجاوز ذلك، وذلك حسب مصادر موثوق بها مثل ابن خلدون الذي فقد أمه وأبوه وعددا من أساتذته في الطاعون، وابن الخطيب الذي ذكر أن الوباء «**شكل على هذه الوتيرة أكثر المعمور فحرز ما هلك من نوع الإنسان سبعة أعشار، ولم يتقدم فيما اتصل بأولى الإطلاع من تواريخ الأمم خبر وباء بلغ مبلغه، من أخذه ما بين لابتي المشرق والمغرب.**»[96]

وعلى غرار فقدان عبد الرحمان ابن خلدون لوالدته ووالده وعددا كبيرا من أساتذته، فلسان الدين ابن الخطيب السلماني بدوره فقد أستاذه الرئيس "أبو الحسن بن الجياب" الذي توفي في الطاعون الجارف، في شوال 749هـ (يناير 1349م)[97]، لذلك يمكن القول أن آفة الأوبئة شأنها في ذلك شأن آفة المجاعات كانت تقضي على نسبة هامة من العلماء والمفكرين، مما كان يؤدي إلى تراجع القطاع الفكري.[98]

كما عرفت مدينة فاس نفسها خلال وباء 873-874هـ/1468-1469م، وفاة 400.000 ضحية[99]، لذلك يمكن الجزم بأن الموقف السائد في المجتمع المغربي وسائر المجتمعات الإسلامية، تميز بالاستسلام للطاعون على أساس أنه قضاء لا مفر منه، وقد برر هذا الموقف التفسير السحري الديني الذي يجعل الطاعون طعن جن، ليس بمقدور الإنسان مواجهته، وتدعم هذا الموقف السلبي نظرا لعجز الطب عن إيجاد دواء لهذا الوباء[100].

لذلك نصح بعض الفقهاء بالاستسلام له والصبر عليه وانتظار الشهادة، في هذا الصدد يقول ابن حجر العسقلاني: « **وهذا الطاعون أعيا الأطباء دواؤه حتى سلم حذاقهم أن لا دواء له ولا راجع له إلا الذي خلقه وقدره.**»[101]، من هذا المنطلق، يمكن اعتبار هذا الخنوع ولاستسلام والصبر عند نزول مصيبة الوباء أو الطاعون، يعتبر مظهر من مظاهر متخيل المغاربة حول الجوائح الطبيعية من خلال مواقف مختلف الشرائح الاجتماعية من عامة وفقهاء وأطباء وأولياء، حيث أمام عجز "النخبة" عن فهم الأسباب التي تنتج عنها مثل هذه الأوبئة، اضطرت إلى إرجاعها إلى غضب الله.[102]

ومجمل القول يتعذر معرفة حجم النزيف الديمغرافي الذي أحدثه الوباء في غياب الإحصائيات وعدم معرفة العدد الإجمالي للسكان، فالدراسات التي أنجزت حول تاريخ المغرب لم تشير إلى تقدير عدد السكان، فقبل كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان لا يوجد مصدر حاول الوقوف على عددهم[103].

لذلك يبدو أن سكان المغرب خلال هذه الحقبة التاريخية كانوا يعيشون في دائرة مغلقة من الناحية الديمغرافية، أي في نظام ديمغرافي قديم تميز بالركود، نتيجة تآكل نسبة المواليد بفعل ارتفاع نسبة الوفيات، فكلما تزايد عددهم في أوقات الهناء والرخاء، إلا وانقضت عليهم المجاعات، وفتكت بهم الأوبئة، بصفة تكاد تكون دورية، فتقضي على عدد كبير منهم.[104]

«**فيموت الجمع الكثير في الزمن اليسير، فيقع بسبب ذلك من خراب غالب البلد، وتعطيل كثير من المعايش**»[105]، لذلك تعتبر ظاهرة خراب المدن من أبرز الظواهر التي رافقت اجتياح الأوبئة بمغرب العصر الوسيط، والظاهر أن مدينة مراكش تضررت كثيرا من جراء الطاعون الأسود، فابن بطوطة الذي زارها في منتصف القرن 8هـ/14م، بعد عودته من الأندلس، وجدها وقد استولى عليها الخراب[106]، وتأكد هذا الوضع مع زيارة ابن الخطيب لها عام 761هـ/ 1360م، فوصف خرابها بالهائل والموحش[107].

فإذا ما قورنت هذه الوضعية مع وصف العمري[108]، لعمرانها الذي سبق هذه الجائحة يتبين مدى الدمار الذي وقع في هذه المدينة، وبالإضافة إلى هذا الدمار والخراب الذي أحدثته هذه الكوارث بالبلاد، يبقى الارتفاع المهول في الخسائر البشرية بفعل الأوبئة

والطواعين التي أشرنا إليها، يرخي بظلاله على الحركة التجارية حيث كانت هذه الحركة تعرف ركودا قاتلا وقت ظهور وباء الطاعون، ذلك أن أهالي المناطق الغير الموبوءة، كانوا يمنعون أهالي المناطق الموبوءة من الدخول إلى بلادهم خوفا من نقلهم العدوى.[109]

كما أن توالي الأوبئة على المغرب الأقصى خلال الفترة المدروسة (العصر الوسيط) أسفر عن تفاقم وظهور العديد من المشاكل التي أدت في النهاية إلى زعزعة الأسس المادية للنشاط الفلاحي، وأعاقت تطور الزراعة والغراسة والرعي، ويأتي في مقدمة هذه العوائق قلة اليد العاملة الزراعية بفعل موت العديد منها[110].

حيث من الطبيعي أن ارتفاع عدد الهلكى يعطل وربما يشل النشاطات الاقتصادية، فهو يمنع الزرع والحصاد ويؤدي إلى إهمال المواشي والدواب(...) وكثرة الموتى تعني قلة اليد العاملة في المدينة وفي الريف[111]، وعلى الرغم من النصائح التي قدمها العلماء للعامة والخاصة من الناس حول كيفية التصرف في زمن الوباء والطاعون، مثل النصائح والتوجيهات التي قدمها الطبيب ابن الخطيب السلماني، في مؤلفه الطبي، والمتمثلة في الأطعمة الجيدة اللازم أكلها، وتلك التي يجب تركها، والأشربة والأدوية والأبخرة المستعملة للعلاج، والأدعية المساعدة على ذلك، والعطور المستحبة[112]، إلا أن هذه الأمور لم تكن في متناول الفقراء الذين شكلوا غالبية اليد العاملة المحركة للأنشطة الاقتصادية، مما يفسر كثرة الموتان فيهم، فكان هذا الطاعون «**في الضعفاء وأهل الشظف أفتك**»[113].

بل كانوا من ضعف المرض والطاعون لا يقدرون على الحركة[114]، من هنا نستنتج أن الطاعون حسب ابن الخطيب السلماني، ليس له نفس الوقع على سائر الفئات الاجتماعية، ومن هنا نتسائل لماذا يعتبر الطاعون أشد فتكا بالضعفاء؟ يقول لسان الدين ابن الخطيب في هذا الصدد «**لأمور منها أماكن المباشرة لمضانه من المرضى والجنائز والأثواب والآلات، ومنها ضيق المساكن والتراكم وسوء التدبير، وعدم التحفظ، وقلة التيقظ لفشو الجهل، وعدم العلم بهذه الأمور في طبقات اللفيف.**»[115]

تماشيا مع ما أورده الطبيب لسان الدين ابن الخطيب، فإن المغاربة في زمن الأوبئة والطواعين، يمكن القول أنهم حافظوا على مجموعة من العادات والتقاليد الدينية، مثل زيارة المريض، وتغسيل الميت، والسهرة الجماعية لتوديع الهالك، وتشييع جنازته والصلاة على جثمانه قبل قبره[116].

وهو ما يمكن تصنيفه في إطار "المظاهر السلبية" إن صح القول- التي تمسك بها المغاربة في زمن الوباء والطاعون على الرغم من خطورتها في نقل الوباء، عن طرق العدوى، وهو الطرح الذي يؤكده ابن الخطيب حيث ينهي عن مخالطة من أصابه الطاعون، وفي المقابل يرفضه ابن حجر العسقلاني، حيث يدعوا هذا الأخير الناس إلى زيارة مرضاهم واحترام التقاليد الإسلامية التي توصي بزيارة المريض[117].

وبالعودة إلى تأثير الأوبئة والطواعين على الأنشطة الاقتصادية، تجدر الإشارة أنه علاوة على تضرر القطاع التجاري والفلاحي، من جراء اجتياح الأوبئة وما يرافقها من مظاهر الشدة والضيق والكساد، فإن الحركة الحرفية بدورها قد تضررت بشكل كبير حيث إن ارتفاع الأسعار مع ضعف القدرة الشرائية للمغاربة ساهما بشكل كبير في تضرر الحركة الحرفية والتجارية نتيجة قلة الإنتاج والرواج[118].

بناء على ما سبق يتضح، أن تضرر القطاع الفلاحي كان يؤدي حتما إلى تضرر القطاعين الرديفين ونعني بهما القطاع الحرفي والقطاع التجاري، فالمنتوجات الفلاحية شكلت عصبة المبادلات التجارية داخل القطر الواحد على الأقل، وما دام أن أغلب السكان خلال العصر الوسيط كانوا يقطنون بالبوادي، فإن أي عوز مادي يصيبهم يكون له تأثير على الأنشطة التجارية والحرفية داخل الحواضر[119].

وبالموازاة مع هذا الدمار الذي أحدثته هذه الكوارث والأوبئة في الميدان الاقتصادي، على المستوى التجاري والفلاحي والحرفي، وما كان ينشأ عنها من دمار وخراب وما كانت تتركه من أثار بعيدة الغور في كافة الميادين[120]، فقد ظهرت عدة سلوكيات أيضا وتصرفات غير طبيعية عند الكثير من الناس بالمغرب في مثل هذه الأزمات، مثل السرقة والاعتداء على ممتلكات الغير، وقطع الطرق وتشكيل عصابات اللصوص في المسالك، وهو ما دفع السلطان أبو الحسن المريني إلى «**تعمير طرق المسافرين من حضرته بفاس إلى مراكش وإلى تلمسان وسبتة، وغيرها من البلاد بالرتب يأمر سكانها على مقدار إثني عشر ميلا يسكنها أهل الوطن ويجري لهم على ذلك إقطاعا من الأرض يعمروها(...) يلزمون فيها بيع الشعير والطعام، وما يحتاج إليه المسافرون من الأدم على اختلافها، والمرافق التي يضطرون إليها(...) فلا يزال المسافر كأنه في بيته وبين أهله في ذهابه وإقباله.»[121]**

وهذه حسب الباحث عبد الهادي البياض تعتبر سياسة أمنية مندمجة أتت أكلها في مراحل مناخية صعبة، لكن على الرغم من نجاعة بعض التدابير الأمنية[122]، فقد أدت مثل هذه الكوارث أيضا إلى الانعزال والانطواء على النفس، واعتبار أن ما حل بالناس هو بسبب ابتعاد الناس عن شرع الله، فظهر التصوف والزهد وانتشرت الخرافات، وبعض الطقوس كالسحر والتنجيم، وادعاء الكرامات وكثر التسول وغيرها[123].

في هذا الباب – ظهور التصوف وادعاء الكرامات – وانطلاقا من كلام أستاذنا إبراهيم القادري بوتشيش حول مسألة الأولياء وكراماتهم وبأن التصوف يشتد عوده إبان الأزمات[124]، يتضح أن فئة الأولياء في زمن الأوبئة والأمراض كان يصبح لها دور ريادي داخل المجتمع لا يختلف كثيرا عن دورهم زمن المجاعات والقحوط، فيحصل اعتقاد الناس فيهم، والاقتناع الجازم بصدق كراماتهم، وهو ما يؤشر على قدرتهم في شفاء الأمراض، ولجوء الناس إليهم بعد أن ضاقت بهم السبل من أجل الاستشفاء[125].

لذلك يمكن القول أن كوارث القحط والجذب وما ينتج عنها عادة من أوبئة وأمراض، أضفت شرعية اجتماعية وسياسية ودينية على تيار اجتماعي كان لا يزال يبحث له عن موطن قدم داخل الخريطة السياسية والدينية، ونعني به تيار الأولياء والصلحاء[126].

فكانت غالبية العلاجات ترتبط بالاعتقاد في بركة الولي الصالح أساسا، فهي لا تتضمن أدوية أو مهارات خاصة، وغالب الظن أن اللجوء إلى المتصوفة من أجل الاستشفاء كان يحصل بعد عجز الأطباء[127]، وهو ما كان يؤدي حسب أحد الباحثين إلى الصراع والتنافس بين الأولياء والأطباء في مجال الطب والمداومة، فالأطباء كانوا ينكرون على الأولياء تدخلهم في هذا الميدان، بينما سعى الأولياء إلى إبراز "قدراتهم الخارقة" على معالجة الأمراض المستعصية.[128]

حيث غدا معروفا أن ما يدفع الناس البسطاء عادة إلى اللجوء لطلب العون من الأولياء، هو البحث عن الحلول لأزماتهم الشخصية أو الاجتماعية، أو الشعور بالظلم نتيجة الاستبداد السياسي، أو البحث عن علاجات مفترضة للأوبئة والأمراض المستعصية[129].

وأخيرا يجب أن لا ننسى أن تدخل السلطة في زمن الأوبئة والطواعين لم يكن يقتصر على محاربة السلب والنهب وتأمين الطرق والمسالك كما أسلفنا الذكر، وإنما كان تدخلها أيضا في الميدان العلاجي والاستشفائي، فعلى سبيل المثال كانت الدولة الموحدية، تهتم بشكل كبير بتوفير العلاجات الضرورية للمرضى، والبحث عن الأدوية المناسبة للأمراض الواسعة الانتشار، حيث بلغ الطب على عهد الموحدين درجة من التطور كان معها الأطباء يجربون الأدوية في الحيوانات، والطيور قبل إعطائها للمرضى، الشيء الذي ينم عن وجود مختبرات و " معامل" لصناعة الأدوية اللقاحات.[130]

ولعل ما يقوم دليلا على اهتمام دولة الموحدين بالقطاع الاستشفائي، إقدام الخليفة يعقوب المنصور الموحدي على تشييد مارستانات عظيمة لعلاج المرضى والمجانين، وبالعودة إلى كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي، نجد وصفا دقيقا لإحدى المارستانات بدءا من موقعه مرورا بفضائه الداخلي، وانتهاء بما يحتوي عليه من فراش وأثاث، فيقول في وصفه «**وبنى بمدينة مراكش بيمارستانا ما أظن أن في الدنيا مثله.**»[131].

خاتمة:

وفي الأخير كشفت هذه الدراسة المتواضعة عن النتائج التالية:

- حدوث الأوبئة بالمغرب الوسيط، كان تارة العامل الطبيعي هو المتسبب في حدوثها، وذلك عن طريق التقلبات والتغيرات المناخية وفساد الهواء من جهة، وتوالي السنوات العجاف وانتشار القحط من جهة أخرى، وتارة أخرى كان العامل البشري مقرونا بالعامل الطبيعي سببا في حدوثها، وذلك بفعل لجوء الناس في زمن المجاعات والقحوط، إلى استهلاك أطعمة غير مألوفة وغير صحية، نتيجة انعدام الأقوات فتكثر الأمراض والأوبئة.

- العامل البشري كان في بعض الأحيان مسؤولا لوحده عن حدوث الوباء بالمغرب الأقصى، وذلك عن طريق نقل العدوى من شخص إلى أخر، كما هو الشأن بالنسبة لوباء 749هـ-750هـ/1348-1349م، ووباء 899هـ/1493م، في حين تظل أسباب بعض الأوبئة غامضة وغير واضحة، مثل وباء 344هـ/956م، ووباء 610هـ/1213م، ووباء 873هـ-874هـ/1468-1469م.

- الأمراض والأوبئة شكلت خطرا دائما هدد ساكنة المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، سواء داخل المدن أو البوادي، فكانت من أبرز مظاهرها: ظهور اللصوصية وقطاع الطرق، تأثر القطاع الاقتصادي، الاحتكار وارتفاع الأسعار، انتشار الخرافات والسحر واللجوء إلى الأولياء.

- ظاهرة الهرة والهروب كانت تعتبر من أقصى المواقف التي كانت تفصح عن تمرد الإنسان ضد هذا الوضع.

- تدخل السلطة في زمن الأوبة والطواعين بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط لم يكن يقتصر على محاربة السلب والنهب وتأمين الطرق والمسالك، وإنما كان تدخلها أيضا في الميدان العلاجي والاستشفائي.

الهوامش:

[1]- إبراهيم قادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع-الذهنيات-الأولياء**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، أبريل 1993، ص. 5

[2]- إسماعيل محروق، **الطاعون الجارف وأثره على الحياة الفكرية في بلاد المغرب الإسلامي**، ضمن أعمال المؤتمر الدولي العلمي الافتراضي، بعنوان: المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور، الجزء الأول، المركز الديمقراطي العربي – برلين، إشراف وتنسيق، تلي رفيق، يوليوز 2021، ص. 128.

[3]- رشيد يماني، **الإنتاج الفكري حول الأوبئة في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط**، ضمن أعمال المؤتمر الدولي العلمي الافتراضي، تحت عنوان: المجاعات والأوبئة الوطن العربي عبر العصور، الجزء الأول، المركز الديمقراطي العربي-برلين، إشراف وتنسيق، تلي رفيق، يوليوز 2021، ص. 71.

[4]- أحمد السعداوي، **المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون: الطاعون الأعظم والطواعين التي تلته القرنين 8-9هـ/14-15م**، مجلة IBLA، السنة الثامنة والخمسون، العدد 175، 1995، ص. 119.

[5]- الحسين بولقطيب، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002، ص. 50.

[6]- فاطمة بوزاد، **المناخ مدخل لدراسة البنيات الذهنية للمجتمع المغربي خلال العصر الوسيط**، مجلة ليكسوس، العدد 42، ماي 2022، ص. 33.

[7]- ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، طبعة دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972، ص. 97.

8– ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، الجزء الثالث، تحقيق وتعليق، بشار عواد معروف، ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي تونس، الطبعة الأولى، 2013، ص.158.

9– حميد اجميلي، **الطاعون الأسود بالغرب الإسلامي وبعض نتائجه الديمغرافية 749هـ/1350م**، مجلة أفاق فكرية، المجلد09، العدد 02، تاريخ النشر، 2021-10-30، ص. 246.

10– حسين بوجرة، **الطاعون وبدع الطاعون، الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والطبيب والأمير**، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات الدكتوراه، رقم 93، الطبعة الأولى، بيروت، 2011، ص. 129.

11– ابن أبي زرع الفاسي، **روض القرطاس**، ص. 97.

12– رشيد عباس، **النظام الغذائي زمن المجاعات والأوبئة**، مقال بالمجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، المجلد 04، العدد 08، 2019، ص. 88.

13– الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**، الجزء الأول، ترجمه من الفرنسية، محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، 1983، ص. 85.

14– ابن أبي زرع الفاسي، **روض القرطاس**، ص. 98.

15– حميد اجميلي، **الطاعون الأسود**، ص. 248.

16– نور الدين بعكاك، **المجاعات والأوبئة في تلمسان الزيانية من خلال النوازل الفقهية**، ضمن أعمال المؤتمر الدولي الافتراضي، تحت عنوان: المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور، الجزء الأول، المركز الديمقراطي العربي–برلين، إشراف وتنسيق، تلي رفيق، يوليوز 2021، ص. 146.

17– أحمد السعداوي، **المغرب الإسلامي**، ص. 126.

18– فاطمة بوزاد، **المناخ**، ص. 33.

19– ابن أبي زرع الفاسي: **روض القرطاس**، ص. 100.

20– حميد اجميلي، **الطاعون الأسود**، ص. 148 – 149.

21– عبد الرحمان ابن خلدون الحضرمي، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق، درويش الجويدي، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، بيروت، 2000، ص. 321.

22– ابن أبي زرع الفاسي، **روض القرطاس**، ص. 102.

23– ابن أبي زرع الفاسي، **روض القرطاس**، ص. 114.

24– حميد اجميلي، **الطاعون الأسود**، ص. 246.

25– ابن أبي زرع الفاسي، **روض القرطاس**، ص. 118.

26– طاهر بخدة، **مجاعات القرنين 4–5هـ/10–11م في الغرب الإسلامي بين أفات الطبيعة وعمل الإنسان**، ضمن أعمال المؤتمر الدولي العلمي الافتراضي، بعنوان: المجاعات والأوبة في الوطن العربي عبر العصور، الجزء الأول، المركز الديمقراطي العربي – برلين، إشراف وتنسيق، تلي رشيد، يوليوز 2021، ص. 167.

27– الحسين بولقطيب، **جوائح**، ص، 67.

28– ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، الجزء الثالث، ص، 237.

29– ابن أبي زرع الفاسي، **روض لقرطاس**، ص. 267.

30– الحسين بولقطيب، **جوائح**، ص. 53.

31– فاطمة بوزاد، **المناخ**، ص 34.

32– عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (القرن 6–8هـ/12–14م)**، دار الطليعة للطباعة، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، 2008، ص. 125.

33– ابن أبي زرع الفاسي، **روض القرطاس**، ص. 272.

34– ابن أبي زرع الفاسي، **روض القرطاس**، ص، 276.

35– عبد الرحمان ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق، أبي عبد الرحمان عادل بن سعد، دار النشر، سوماكرام، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص. 330.

36– حسام محمود المحلاوي، **الطاعون الأسود (748–752هـ/1347–1351م) بين الطبيب الأندلسي ابن خاتمة الأنصاري (ت. 770هـ/1369م) وجامعات وأطباء أوربا، دراسة وثائقية مقارنة**، مركز البحوث والدراسات التاريخية، مجلة وقائع تاريخية، عدد يوليوز 2020، الجزء الثاني، ص. 46.

37– عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات، **المدينة في العصر الوسيط قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1994، ص. 15.

38– أبو العباس أحمد (عرف بابن البناء المراكشي)، **رسالة في الأنواء**، اعتنى بنشرها وتصحيحها، هـ.ب.ج. رونو، الناشر: مكتبة لاروز، باريس، 1948، ص. 3.

39– الحسين بولقطيب، **جوائح**، ص.33.

40– ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، الجزء الثالث، ص. 476.

41– فاطمة بوزاد، **المناخ**، ص. 35.

42– ابن أبي زرع الفاسي، **روض القرطاس**، ص، 276–277.

43– عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية**، ص. 29.

44– بشرى بن دراجي، **العلاقة بين المناخ والأوبئة وأثرها على الحياة في مصر المملوكية**، ضمن أعمال المؤتمر الدولي العلمي الافتراضي، تحت عنوان: المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور، الجزء الأول، المركز الديمقراطي العربي – برلين، إشراف وتنسيق، تلي رفيق، يوليوز 2021، ص. 200.

45– ابن أبي زرع الفاسي، **روض القرطاس**، ص. 255.

46– ابن أبي زرع الفاسي، **روض القرطاس**، ص. 384.

47– أحمد بن خالد الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الجزء الثالث، تحقيق وتعليق، جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، ص. 90.

48– الحسين بولقطيب، **جوائح**، ص. 33.

49– عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية**، ص. 32.

50– لسان الدين ابن الخطيب السلماني، **مقنعة السائل عن المرض الهائل**، تحقيق، حياة قارة، منشورات، دار الأمان الرباط، مطبعة الكرامة، 2015، ص. 44.

51– حميد اجميلي، **الطاعون الأسود**، ص. 248.

52– حميد اجميلي، **الطاعون الأسود**، ص.

53– محمد بن عبد الله ابن بطوطة اللواتي الطنجي، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق، الشيخ عبد المنعم العريان، مراجعة، مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم بيروت، الطبعة الأولى، 1987، ص. 670.

54 أحمد السعداوي، **المغرب الإسلامي**، ص. 127.

55– الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**، ص. 85.

56 أحمد السعداوي، **المغرب الإسلامي**، ص. 128.

57– لسان الدين ابن الخطيب السلماني، **مقنعة السائل**، ص. 73.

58– حميد اجميلي، **الطاعون الأسود**، ص.250.

59– لسان الدين ابن الخطيب السلماني، **مقنعة السائل**، ص. 65.

60– بكوش فافة وسكاكو مريم، **جهود وإجراءات السلطة والمجتمع في بلاد المغرب الإسلامي في فترات الأوبئة والمجاعات**، ضمن أعمال المؤتمر الدولي العلمي الافتراضي، تحت عنوان: المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور، الجزء الأول، المركز الديمقراطي العربي – برلين، إشراف وتنسيق، تلي رفيق، يوليوز 2021، ص. 182.

61– لسان الدين ابن الخطيب السلماني، **مقنعة السائل**، ص. 73 – 74.

62– ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون في فضل الطاعون**، تحقيق، أبو إبراهيم كيلاني محمد خليفة، دار الكتب الأثرية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1993، ص. 56.

63– عبد العالي طيبي، **أثر الأوبئة والكوارث في طبائع الإنسان في مغرب العصر الوسيط**، ضمن أعمال المؤتمر الدولي العلمي الافتراضي، تحت عنوان: المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور، الجزء الأول، المركز الديمقراطي العربي – برلين، يوليوز 2021، ص. 153.

64– لسان الدين ابن الخطيب السلماني، **مقنعة السائل**، ص. 66-67.

65 رواه أبو هريرة، أخرجه أحمد في مسنده (32/520-521)، أنظر، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، منشورات، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2001.

66 الراوي: أبو هريرة، المحدث: البخاري، المصدر، صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: 5707.

67– أحمد بن يحي الونشريسي، **النوازل الجامعة أو نوازل الجامع**، تحقيق، الشريف مرسي، دار الآفاق العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2011، ص.326.

68– محمد ياسر الهلالي، **أثر القحط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادية في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط**، الأيام الوطنية العاشرة: المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المغرب، 2002، ص. 168-169.

69– لسان الدين ابن الخطيب السلماني، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق، محمد كمال شبانة، نشر اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، 1976، ص. 163.

70– محمد ياسر الهلالي، **أثر القحط**، ص. 169.

71– محمد ياسر الهلالي، **أثر القحط**، ص. 191.

72– لسان الدين ابن الخطيب السلماني، **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، الجزء الثالث، تقديم وتحقيق، السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989، ص. 61.

73– لسان الدين ابن الخطيب السلماني، **نفاضة الجراب**، ص. 61.

74– محمد ياسر الهلالي، **أثر القحط**، ص. 182.

75– محمد ياسر الهلالي، **أثر القحط**، ص. 186.

76– أحمد بن محمد المقري التلمساني، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، الجزء الأول، ضبط وتعليق وتحقيق، مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة، صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، 1398هـ/1978م، ص. 68.

77– محمد الغزواني، **الموريسكون وإعادة الانتشار: الظروف والمآلات المجال المغاربي نموذجا**، دورية كان التاريخية، السنة الثالثة عشرة، العدد الخمسون، ديسمبر 2020، ص. 02.

78– محمد ياسر الهلالي، **أثر القحط**، ص. 187.

79 الراوي: عائشة أم المؤمنين، المحدث: الألباني، المصدر: صحيح الجامع، الصفحة أو الرقم: 3948.

80– رفيق تلي، **المجاعات والأوبئة دراسة في الدلالة والمفهوم**، ضمن أعمال المؤتمر الدولي الافتراضي، تحت عنوان: المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور، الجزء الأول، المركز الديمقراطي العربي– برلين، إشراف وتنسيق، تلي رفيق، يوليوز 2021، ص. 162.

81 طاهر بخدة، **مجاعات القرنين 4-5هـ/10-11م**، ص. 167.

82– محمد ياسر الهلالي، **أثر القحط**، ص. 186.

83– عبد الرحمان ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق، أبي عبد الرحمان عادل بن سعد، دار النشر، سوماكرام، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص. 230.

84– ابن أبي زرع الفاسي، **روض القرطاس**، ص.97.

85– ماجدة كريمي، **قراءة المدينة الموحدية والمرينية من خلال أزمة المجاعات والأوبئة**، الأيام الوطنية العاشرة: المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المغرب، 2002، ص. 107.

86– ابن أبي زرع الفاسي، **روض القرطاس**، ص. 267.

87– الحسين بولقطيب، **جوائح**، ص. 55.

88– ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، الجزء الثالث، ص.237.

89– عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات، **المدينة في العصر الوسيط**، ص.171.

90– ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، الجزء الثالث، ص. 256.

91– ماجدة كريمي، **قراءة المدينة**، ص.116.

92– ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، الجزء الثالث، ص. 238.

93– مؤلف أندلسي مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق، سهيل زكار، وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1979، ص. 158.

94– حميد اجميلي، **الطاعون الأسود**، ص.251.

95– محمد ياسر الهلالي، **أثر القحط**، ص. 186

96– لسان الدين ابن الخطيب، **مقنعة السائل عن المرض الهائل**، ص. 74.

97[97]– لسان الدين ابن الخطيب السلماني، **معيار الاختيار**، ص. 13.

98– ماجدة كريمي، **قراءة المدينة**، ص. 116.

99– محمد ياسر الهلالي، **أثر القحط**، ص. 186.

100– أحمد السعداوي، **المغرب الإسلامي**، ص.135.

101– ابن الفضل ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون**، ص. 196.

102– الحسين بولقطيب، **جوائح**، ص. 50.

103– حميد اجميلي، **الطاعون الأسود**، ص. 253.

104– محمد ياسر الهلالي، **أثر القحط**، ص. 176.

105– ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون**، ص. 200.

106– محمد ياسر الهلالي، **أثر القحط** ، ص.190.

107– عبد الله لسان الدين ابن الخطيب السلماني، **معيار الاختيار**، ص. 163.

108– أحمد بن يحي بن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر، ممالك إفريقية ما وراء الصحراء، وممالك إفريقية وتلمسان وجبال البربر وبر العدوة والأندلس، تحقيق وتعليق، مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988، ص. 129.

109– الحسين بولقطيب، **جوائح**، ص.51-52.

110– محمد ياسر الهلالي، **أثر القحط**، ص. 177.

111– أحمد السعداوي، **المغرب الإسلامي**، ص. 122-123.

112– عبد الله لسان الدين ابن الخطيب السلماني، **مقنعة السائل**، ص.66.

113 عبد الله لسان الدين ابن الخطيب السلماني، **مقنعة السائل**، ص. 77.

114– عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية**، ص. 125.

115– عبد الله لسان الدين ابن الخطيب السلماني، **مقنعة السائل**، ص. 81.

116– أحمد السعداوي، **المغرب الإسلامي**، ص.137.

117– ابن الفضل ابن حجر العسقلاني، **بذل الماعون**، ص.213.

118– محمد ياسر الهلالي، **أثر القحط**،ص. 195.

119– الحسين بولقطيب، **جوائح**، ص. 29.

120– محمد الأمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992، ص. 11

121– ابن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق، ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم، محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص. 429.

122– عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية**، ص. 86.

123– عبد العالي طيبي، **أثر الأوبئة**، ص. 151.

124– ابراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص. 125.

125– محمد فتحة، **النوازل الفقهية والمجتمع: أحداث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6هـ إلى 9هـ/12–15م)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، سلسلة الأطروحات والرسائل، 1999، ص. 171.

126– الحسين بولقطيب، **جوائح**، ص. 35.

127– محمد فتحة، **النوازل الفقهية**، ص. 172.

128– الحسين بولقطيب، **جوائح**، ص.76.

129– الحسين بولقطيب، **جوائح**، ص. 36.

130– الحسين بولقطيب، **جوائح**، ص. 71.

131– عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تخليص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1949، ص. 287.